الختام

الصهيونية والجدار الزجاجي

إن دولة يهودية جزئية ليست النهاية، بل هي مجرد البداية.

ديفيد بن غوريون (1937)[1]

أحلم ببلدين مفصولين بحدود واضحة. حدود توضح لكل شعب المساحة التي يعيش فيها ككيان سياسي، ككيان وطني. إذا كان يوجد حدود، فتوجد هوية. يوجد واقع حي جديد يمكن فيه لهذه الهوية أن تجد طريقها للشفاء وأن تنفث دم سُمِّ الوهم.

ديفيد غروسمان (1993)[2]

في بلد طبيعي، يكون الجيش مسئولاً عن أمن الأعداء الخارجين ويفترض أن تهتم الشرطة بالصراعات الداخلية... أما في إسرائيل، فإننا لا نعرف تماماً ما هو خارجي وما هو داخلي، وهذا وضع غير صحي تماماً. يوجد عندنا اليوم حاخامات يظهرون وكأنهم جنرالات وجنرالات يظهرون وكأنهم حاخامات. فالحدود لازمة لإدراك حدود القوة العسكرية.

بارون إزراحي، أستاذ العلوم السياسية

في الجامعة العبرية، القدس (2003)[3]

obeikandl.com

في أغسطس 2005، قبل أسبوعين من انفصال إسرائيل عن غزة، ركب جندي شاب حافلة تابعة لشركة مواصلات إيجيد رقم 165 في حيفا حتى وصل إلى نهاية الخط: وهو بلدة شفاعمرو العربية. كانت تلك المرة الثانية التي قام بها إيدن ناتان زادا، البالغ من العمر 19 سنة، بهذه الرحلة. وكان في اليوم السابق قد ركب في الحافلة بنفس الساعة، الخامسة بعد الظهر، وتظاهر بأنه نائم. وقام السائق، ميشيل باهوث، بإيقاظ زادا عندما وصلا إلى مستودع شفاعمرو وقدم إليه كأساً من الماء وعادا معاً إلى النقطة التي يستطيع منها أن يستقل حافلة أخرى تنقله إلى بيته. وقد صرح سائق آخر في المستودع بأن «الجندي كان صامتاً. كان ملتحياً ويضع على رأسه قبعة «كيبّة» وله خصلات شعر جانبية ويحمل حقيبة على ظهره. كان يبدو عليه الهدوء، لا الجزع لكونه في بلدة عربية[1].

ويبدو أن باهوث لاحظ ركوب الجندي ذاته حافلته في اليوم التالي، مع أن نظام النقل العام في إسرائيل يعج بالشبان الذين يرتدون الكاكي ويحملون البنادق. ويقول الشهود بأنه عندما دخلت الحافلة شفاعمرو، نادى باهوث على الشاب الجالس في الصف الخلفي لأن يتقدم إلى الأمام. مشى زادا إلى مكان السائق، وتبادلا بعض الكلمات، ثم رفع زادا بندقيته م ـ 16 وأطلق الرصاص بعلى رأس باهوث. ثم التفت وأفرغ الخزان في رجل كان يجلس وراء باهوث مباشرة، اسمه نادر حياك والأختين، هزار ودينا تركي، وعمرهما 23 و21 سنة، في الجانب الآخر من ممر الحافلة. ثم عبأ خزاناً آخر ورش الحافلة

بمزيد من الطلقات وجرح 12 من الركاب. ثم سار نحو امرأة وقد انحنت تحت مقعدها من الخوف. ومن مسافة قريبة جداً صوب بندقيته إلى رأسها وضغط على الزناد. كان الخزان فارغاً. وفيما كان يحاول إعادة تعبئة البندقية بمشط من الأمشاط الأربعة عشر في حقيبة ظهره، قبضت المرأة على فوهة البندقية الملتهبة، محرقة يديها، لانتزاعها منه. وانضم إليها آخرون وتغلبوا على الجندي.

يذكر حارس أمني درزي ألقى القبض على زادا في الحافلة جواب الجندي الشاب عندما سئل عن سبب قيامه بذلك، فقد قال: «كل ما أعرفه أن هذه بلدة عربية. عما قريب ستحضر الشرطة وتكون الأمور كلها على ما يرام»(5). بعد لحظات قام حشد من الجمهور المتفرج ـ ربما خشية وصول الشرطة وأن تكون الأمور كلها على ما يرام ـ باقتحام الحافلة وأوسعوه ضرباً حتى الموت(6).

اتفقت آراء الجميع أن زادا كان يأمل أن يؤدي هجومه إلى وقف الانسحاب من غزة. فقد كان ينتمي إلى كاخ، وهي حركة يمينية متطرفة تأسست في السبعينات من قبل الحاخام مائير كاهانه المتوفى.

يعتقد أتباع كاهانه، مثل كثيرين آخرين من الصهيونيين الدينيين، أن الله قد فرض على اليهود أن يعيشوا في معزل عن غير اليهود بغية إيجاد ثقافة يهودية نقية استناداً إلى القانون الديني اليهودي «الهلاخا» وأن إقامة إسرائيل هي إيذان ببداية عهد المسيح المنتظر. على أن حركة كاخ تختلف عن غيرها من الجماعات الصهيونية الدينية، من حيث الحماس الذي تطالب به باقتلاع العرب من أرض

الميعاد بغية تسريع مجيء المسيح المنتظر. ومع أن القانون حظر برنامجها في 1988، إلا أن تأييد كاخ لدى الشبان الإسرائيليين كان قوياً: ففي ذروته في الثمانينيات، بلغ 60 بالمائة في بعض مدارس القدس[7]. وقد لقيت الحركة تسامحاً كبيراً من جانب أجهزة الأمن الإسرائيلية. ورغم أن أعضاء كاخ جزء من منظمة محظورة بموجب القانون، إلا أنه كثيراً ما كانوا يرون يسيئون إلى المتظاهرين من الجناح اليساري ويقومون بإرهابهم، وقد وردت تقارير مطردة عن قيام نشطاء الحركة بمهاجمة الفلسطينيين، لا سيما في القدس[8]. وكان القليلون منهم هم الذين يسجنون. وكان أعضاء جناح الشبان خلف العديد من حواجز الطرق التي يسودها العنف في تقاطعات الطرقات الرئيسة قبيل الانسحاب من غزة، حيث كانوا يهاجمون الشرطة الذين كانوا يحاولون تفرقة المتظاهرين.

لم يحاول زادا، شأنه في ذلك شأن نشطاء كاخ الآخرين. إخفاء آرائه. وقد كان يعارض الفصل بشدة - أي إعادة أراض للعرب - وكان قد انتقل مؤخراً من بيت ذويه قرب تل أبيب إلى مستوطنة تابوا في الضفة الغربية، للانضمام إلى مجموعة من أتباع كاهانه. وبوصفه مجنداً إلزامياً، فقد رفض تنفيذ الأوامر بإقامة المخيم الذي يستخدمه الجنود الذين كانوا سيقومون بتنفيذ الفصل، وفي خاتمة المطاف فر مع سلاحه. وقد اتصلت أمه عدة مرات برؤسائه بالشرطة لتحذرهم بشأن آراء ابنها المتطرفة وأنه كان مسلحاً. ويقال إن زادا راجع الشرطة بعد مدة وجيزة قبل الهجوم بغية تسليم سلاحه لكن الشرطة صدته.

الإرهابي اليهودي ليس إرهابياً حقاً

في الجو المحموم الذي سبق الفصل، لم يضيع رئيس الوزراء آرييل شارون الوقت في شجب أعمال زادا. فقد صدر عن مكتبه بيان جاء فيه[9]: «هذا الحادث الإرهابي يمثل محاولة مقصودة للإضرار بالعلاقات بين جميع المواطنين الإسرائيليين». ذلك البيان عَمَّ تغطية اليوم التالي. لكن القليلين من المراقبين هم الذين تابعوا خاتمة القصة. فالضحايا الإسرائيليون للهجمات الإرهابية يحق لهم الحصول على تعويض من الحكومة بموجب قانون 1970 المتعلق بضحايا الأعمال العدوانية. وأي شخص يقتل أو يجرح من قبل «أي عضو في أي منظمة معادية لإسرائيل» يكون له وضع «ضحية الإرهاب». لكن سلطات الرفاهة سرعان ما أبلغت أسر ضحايا زادا بأنهم لن يكونوا مؤهلين للحصول على تعويض بموجب ذلك البرنامج. وبعد وقت قصير تأكد القرار من قبل لجنة وزارية، أشارت إلى أن زادا كان جندياً وبالتالي لا يمكن اعتباره عضواً في منظمة معادية[10]. وقد رد نازيا حاياك، شقيق نادر حاياك بمرارة: «ما نوع الرسالة التي يبعثها هذا القرار إلى الجمهور، لا سيما إلى أولئك الذين يفكرون مثل إيدن ناتان زادا؟ هذه الرسالة هي أن قتل العرب لا يعتبر إرهاباً؟»[11].

وقد جرت عدة محاولات فاشلة لكي يتم تضمين ضحايا «الإرهاب اليهودي» في القانون. ففي 1994، بعد المذبحة التي ارتكبها طبيب إسرائيلي في الجيش واسمه باروخ غولد شتاين، ذهب ضحيتها 29 من المسلمين المصلين في الخليل، رفض الكنيست تعديلاً للقانون الذي

ينص على تعويض جميع ضحايا الهجمات القومية. وجرت محاولة أخرى بعد أحداث أكتوبر 2000، عندما طالبت أسر 13من العرب الذين قتلتهم الشرطة في الجليل بالتعويض. وقد رفضت دعواهم أيضاً. يبدو أنه في الدولة اليهودية أعمال العرب هي وحدها التي تعتبر إرهاباً.

قبل بضعة أيام من هجوم زادا، أجرت صحيفة هآرتس مقابلة لعدة مفكرين مرموقين من عرب إسرائيل بشأن مستقبل البلاد بعد الفصل. فقد لاحظوا، شأنهم شأن إسرائيليين آخرين، غلبة الشرائط البرتقالية ـ علامات الذين يعارضون الفصل ـ وهي ترفرف من هوائيات السيارات في أنحاء البلاد بخلاف الشرائط الزرقاء لمؤيدي الفصل. فقد شاهدوا في التلفاز العبري الأخبار الليلية التي وصفت بتفصيل أليم صدمة المستوطنين الذين سيضطرون إلى مغادرة غزة. فقد سمعوا الجمهور الإسرائيلي يشير إلى الإجلاء بأنه كارثة، مما يوحي بأن معظمهم لم يكن لديه فكرة بأن تلك الكلمة كانت تثير في نفوس المواطنين العرب ذكرى أكثر مأساوية بكثير[12]. فقد سمعوا الحاخامات يقولون لأتباعهم في الجيش بأن يرفضوا تنفيذ الأوامر. وشاهدوا المستوطنين اليهود يعامَلون برفق شديد وهم يغلقون تقاطعات الطرق ويضعون المسامير في الطرقات ويسكبون الصمغ في أقفال المباني الحكومية ويهاجمون أفراد الشرطة و يشعلون النيرانفي بعض المناسبات. وطيلة ذلك كانوا يسمعون التحريض غير المتناهي الصادر عن السياسيين والحاخامات والمستوطنين ووسائل الإعلام ضد «العرب».

قال الدكتور عادل مانا، وهو مؤرخ في الجامعة العبرية:

أرى كيف أن المستوطنين الذين كانوا يشار إليهم بأنهم يشكلون عقبات للسلام يلقون الآن التعاطف وقدراً من الدعم في خطابهم الشوفيني والفاشي، وأقول لنفسي بأنه إذا كان هذا بدأ يحدث الآن، فماذا سيحدث عندما يضطرون إلى تفكيك بيت إيل [وهي مستوطنة دينية في الضفة الغربية]؟ فأي اضطراب عقلي سيصيب المجتمع الإسرائيلي حينئذ؟ إني أشعر بأني أقل إسرائيلية مما كنت في أي وقت مضى. بالنسبة لي، إنها معادلة بسيطة. كلما سلموا شيئاً للفلسطينيين، ازدادت يهودية إسرائيل، وسأترك في نقطة أبعد في الخارج.

في تعليق يدل على بصيرة نافذة إلى درجة عجيبة، ألمح لطفي مشهور، محرر الصحيفة العربية الأسبوعية، «السِّنارة»، إلى حتمية الهجوم الذي قام به زاداد: «عندما يعود المستوطنون إلى داخل الخط الأخضر، سنكون نحن فلسطينييهم. وسوف يزداد الصراع الداخلي مع العرب في إسرائيل سوءاً». وقد أعرب مشهور عن رأيه الذي مفاده أن الانسحاب من غزة لا يدعو إلى الابتهاج والاحتفال.

إذا تم في واقع الأمر التوسع في عملية الفصل بحيث يشمل أراضي أخرى، فستكون النتيجة أنك ستقيم أخيراً الدولة اليهودية ـ الدولة اليهودية حقاً. وأنا لا أشك في أن هذه هي الخطة... فالناس أخذوا يتحدثون الآن ـ لا من قبيل المصادفة

ـ عن نقل أم الفحم إلى الدولة الفلسطينية، وهذه هي مجرد البداية. وعندما يتم إنشاء الدولة اليهودية الحقيقية، إلى جانب، ربما، الدولة الفلسطينية، سوف يقولون لي: «اذهب إلى هناك، اذهب إلى الجحيم». ولا أشك أبداً بأن هذا ما سيقولونه. فأي نوع من الأخبار السارة يحملها الفصل لي؟[13].

وفيما كان يشاهد في التلفاز المظاهرات احتجاجاً على الانسحاب من غزة، ويرى المستوطنين الشبان يضربون الجنود والشرطة ويركلونهم، قال مشهور بأن ذلك جعله يعود بالذاكرة إلى أكتوبر 2000. كيف كانت هذه الصدامات بين المستوطنين والجنود ستنتهي لو كان المتظاهرون من العرب لا مَن اليهود؟[14].

الإسرائيلي العربي ليس إسرائيلياً حقيقياً

مع أن المعلقين الإسرائيليين دانوا زادا ووصفوه بأنه «تفاحة عفنة»، إلا أنه كان أبعد ما يكون عن الشخص الاستثنائي الذين كانوا يودون أن يفترضوه. إن محاولة زادا إفشال الفصل عبر ذبح عرب إسرائيل كانت مستوحاة من ذات الافتراضات المشوهة التي دفعت الدولة إلى استخدام القمع الفتاك في أكتوبر 2000. فقد كان زادا والدولة على السواء يعتقدان أن عرب إسرائيل هم جزء من الصراع الإقليمي، شأنهم في ذلك شأن فلسطينيي الضفة الغربية وغزة. كان يُفترض أن عرب إسرائيل والفلسطينيون يمثلون ذات الخطر للدولة اليهودية. وكان زادا والدولة على السواء يسلِّمان بأنه، في حال تضارب المصلحة

بين الأكثرية اليهودية والأقلية العربية، فإن الأولوية غير المشروطة هي لليهود؛ فقد كانا يرون أن المساواة في المواطنة لا معنى لها داخل دولة يهودية. وكلاهما رفضا المبدأ الذي مفاده أن الخط الأخضر يرسم فرقاً: فالعرب هم العرب، سواء أوجدوا في نابلس أو في الناصرة أو في الخليل أو في حيفا.

وكان هناك تشابه آخر. فنظرة زادا إلى العرب، الآخر، كانت تحدد فهمه لما يعنيه كون المرء إسرائيلياً حقيقياً. فكما هو الحال لدى الصهيونيين المتدينين الصميميين ـ الذين يشكلون أكثر من واحد في كل عشرة من السكان اليهود[15] ـ كان زادا يؤمن بأن لليهود، شعب الله المختار، التزاماً بأن يستوطنوا في كامل إسرائيل الكبرى. وبصرف النظر عما ينص عليه القانون الدولي، فقد كان الصهيونيون المتدينون يعتقدون بأن اليهود المقيمين في غزة والخليل، في آرييل ومعالي أدوميم ليسوا محتلين، شأنهم في ذلك شأن اليهود المقيمين في تل أبيب وحيفا وبئر السبع. فكيف يكون العيش في الأراضي التي تسمى الآن جيلو أو تابوا، المحتلة في 1967، جريمة، إن لم يكن العيش في الأراضي التي تسمى الآن نتانيا وعسقلان، التي تم احتلالهما عام 1948، جريمة؟ الفرق الوحيد هو تاريخ الاحتلال. من وجهة نظر المعسكر الديني، اليهود يملكون صكوك ملكية إسرائيل الكبرى التي أعطاهم الله إياها. وكما قالت إيمونا إيلون، وهي زوجة وزير سابق من أقصى اليمين، وهو بيني إيلون، ساخرة: «إذا كنا قد اجتحنا وطنهم القومي، فلم يتعين عليهم قبول «حل وسط» نظل بموجبه نعيش في

بيتهم في الوقت الذي نعرض بسخاء ـ إعادة ـ رواقهم؟»[16]. فهي، مثل زادا، ترى أنه لا مجال للقول بأن اليهود سرقوا الأرض: لقد وعدهم الله تلك الأرض منذ آلاف السنين.

في الحقيقة، كان الصهيونيون المتدينون يقفزون إلى النتيجة القاسية للرأي الذي يعبر عنه دعاة الزعماء الإسرائيليين منذ ولادة الدولة اليهودية. فقد كان شارون هو الذي أكد في 2002 بأن نتزاريم، وهي مستوطنة صغيرة في غزة، لا تختلف عن تل أبيب[17]. وقبل ذلك بمدة طويلة، كان موشيه دايان هو الذي ذكَّر الطلاب صغار السن في جامعة تيكنيون في حيفا بأنه يجب عليهم أن لا يصدروا حكماً قاسياً على المستوطنين في الضفة الغربية الذين اختاروا مثلما اختار ذوو الطلاب في 1948.

> لقد ظهرت قرى إسرائيلية مكان القرى العربية. إنكم لا تعرفون الأسماء [أسماء القرى] وأنا لا ألومكم، لأن كتب الجغرافيا تلك لم يعد لها وجود. ثم إن هذه الكتب لم يعد لها وجود فحسب، بل إن القرى العربية لم تعد هناك أيضاً. فقد ظهرت ناهلال في المكان الذي كانت فيه محلول، وغعات محل جيبتا، وسريد مكان حنيفيس، وكفر يهوشوا مكان تل شامان. لا يوجد أي مكان واحد تم إنشاؤه في هذا البلد لم يكن له سكان عرب في السابق[18].

من حيث الطموحات الإقليمية والشوفينية اليهودية، فإن إيديولوجيات الصهيونيين المتدينين والعلمانيين على السواء ليست بعيدة عن بعضها بعضاً. فالخط الأخضر لا وجود له، من وجهة

النظر الدينية، فهو مخالفة خاطئة مفرطة في الإنسانية لإرادة الله؛ والخط الأخضر، من وجهة النظر العلمانية، يمكن تكييفه إلى ما لا نهاية، ولا يحده سوى قدرة اليهود على رسمه لما فيه مصالحهم. فمن منطلق عقلية زادا ودايان، اليهود هم أصحاب الملك الوحيدون للدولة اليهودية، وعلى العكس من ذلك، فإن العرب هم، على أحسن الأحوال، ضيوف غير مرحب بهم، وفي أسوئها غزاة أو أعداء.

لقد جادل باروخ كيمرلينغ بأن الحركة الصهيونية لابد أن تصبح مشروعاً دينياً في اللحظة التي يتصور زعماؤها من جديد بأن فلسطين هي أرض إسرائيل المقدسة.

> إن جوهر حق هذا المجتمع وهذه الدولة وسبب وجودهما منغرسان في رموز وأفكار وكتب دينية ـ رغم محاولة إعطائهما تفسيراً وسياقاً علمانيين. بل إن [الصهيونية] أصبحت أسيرة منذ البداية عبر اختيارها لأرض مستهدفة للهجرة ولمكان لبناء أمتها عليه. ذلك لأنه بعد ذلك، لم يعد بالإمكان إحراز النجاح في بناء الدولة ولا ثقافتها بمعزل عن سياقها الديني، حتى عندما رأى أنبياؤها وكهنتها وبُناتُها ومقاتلوها أنفسهم بأنهم علمانيون كلِّياً(19).

وبعبارة أخرى، لا حاجة لأن يكون المرء صهيونياً متديناً لكي تصيبه عدوى ادعاءاتها. وقد صرح كيمرلينغ بأن 68 بالمائة من اليهود الإسرائيليين يؤمنون بأنهم الشعب المختار و39 بالمائة يؤمنون بعودة المسيح المنتظر(20).

التقسيم العلماني ـ الديني يحل مكان التقسيم السياسي

حتى اندلاع الانتفاضة الثانية، كان الخط الفاصل المركزي في المجتمع اليهودي الإسرائيلي خطاً سياسياً: بين اليسار، الذي ينتمي إلى حزب العمل، إلى حد بعيد، واليمين، الذي ينتمي إلى الليكود. فحزب العمل يريد أقصى حد ممكن من الأرض مع أقل عدد من العرب؛ أما حزب الليكود فيريد، على غرار جابوتنسكي، الحد الأقصى من الأرض، لا غير. ومع ازدياد قوة المستوطنين في الثمانينات والتسعينات، تنامى أيضاً حزب الليكود الذي بوسع برنامجه أن يستوعب بسهولة ـ حتى وإن لم يكن يعكس كلياً ـ حلم المستوطنين بإسرائيل الكبرى المرتبط بالمسيح المنتظر. فسياسات الليكود التوسعية الشرهة للأرض يمكن أن تسير يداً بيد مع تعصب الصهيونيين المتدينين.

ولم يتعرض الحلف لخطر الانحلال إلا حين أصبح زعيم اليمين الطبيعي، شارون، مقتنعاً أخيراً بالحاجة إلى فصل الأراضي، وهو سياسة حزب العمل والعديدين من البيروقراطيين الأمنيين الذين يرأسون الجيش والشرطة وشين بيت ومجلس الأمن الوطني. أمام الوقائع الديمغرافية في المنطقة، وافق شارون على تقسيم الأرض. فبعد أن تخلى عن مواقف الليكود التقليدية المتصلبة، احتل الموقع المتوسط وبدأ النضال الطويل من أجل تحقيق توافق صهيوني يهودي. ذلك سيترتب عليه عواقب رضيِّة كان زعماء إسرائيل يتجنبون

مواجهتها طيلة جيل كامل أو أكثر: أي تحديد الحدود النهائية للدولة اليهودية؛ وتحديد الأطراف التي سيشملهم حق المواطنة؛ وأخيراً، محاولة حل الانقسامات الداخلية في المجتمع اليهودي الإسرائيلي.

إذا كانت فترة شارون إيذاناً ببداية نهاية اليسار واليمين كفئات سياسية ذات صلة، إلا أنها وسّعت خط انقسام آخر في المجتمع اليهودي: بين الصهيونيين العلمانيين والمتدينين. فمع تشكل توافق علماني حول سياسة التصرف من طرف واحد، يمكن أن ينشأ تصدع ينطوي على خطر كامن بينه وبين الصهيونيين المتدينين[21]. حتى هذه المرحلة كانت المواجهة الإيديولوجية على أشدها، وإن كانت قصيرة، حول الانسحاب من غزة. لكنها كانت معرضة لبلوغ نقطة الأزمة إذا حصلت انسحابات ذات شأن من الضفة الغربية، التي لها أهمية دينية أكثر أهمية. وكما قال المؤرخ توم سيغيف، فقد أصبحت المعركة الآن بين إيديولوجيي «دولة إسرائيل» وإيديولوجيي «أرض إسرائيل»[22]. بين أولئك الذين أقسموا يمين الولاء لدولة يهودية والذين أقسموا يمين الولاء لإله يهودي.

قد تكون عواقب هذا الصدام شديدة، ليس أقل شدتها أن المستوطنين كانوا منذ السبعينيات يشجعون أولادهم على الخدمة في الجيش، ووصول العديدين منهم إلى رتب عالية في الجيش. وحيث كان القادة العسكريون، فيما مضى، أبناء الكيبوتزات، والذين كان يدينون بالولاء الأسمى للدولة التي أنشئت داخل حدودها لعام 1948، فقد أصبح اليوم أبناء المستوطنين هم الأكثرية، وهم الذين يعملون على

تشكيل وتعزيز التزام الجيش بمشروع المستوطنات. وكما قال اثنان من المراقبين المتمرسين إن الصهيونيين المتدينين الشبان قد نشأوا «على اعتماد المهنة العسكرية كواجب ديني، وعلى الانضمام إلى الوحدات القتالية والخاصة في الجيش وعلى بلوغ رتب الضباط»[23]. والكثيرون منهم يخدمون قريباً من مستوطناتهم وبعد الخدمة الإلزامية يظلون «يتصرفون كجنود في إجازة أو في الاحتياط، يلاحقون الفلسطينيين بالأسلحة التي زودهم بها الجيش وعلمهم كيف يستخدمونها»[24]. وهم يشكلون اليوم 50 بالمائة من خريجي دورات قادة فصائل الجنود، و40 بالمائة من دورات الضباط و30 بالمائة منـ قادة سرايا الجيش[25].

إجراءات تفادي الحرب الأهلية بين اليهود

من المحتمل أن اختطاف المستوطنين لأجزاء كبيرة من الجيش كان الباعث على عبارات القلق التي صدرت عن شارون مع اقتراب تاريخ الانسحاب من غزة. فقد قال لتلفزيون إن. بي. سي. قبيل اجتماع مع الرئيس بوش في أبريل 2005[26]: «يبدو التوتر هنا والجو هنا وكأنه نذير بحرب أهلية». في ذلك الوقت كان شارون يواجه تهديدات بالقتل من قبل الحاخامات، لا تختلف عن تصاعد التحريض الذي دفع مستوطن متدين شاب إلى قتل إسحق رابين في 1995في محاولة لتخريب عملية أوسلو. وقامت شخصيات دينية كبيرة، بمن فيها كبير الحاخامات السابق أفراهام شابيرا، بأمر الجنود المتدينين برفض

إطاعة الأوامر بإخلاء المستوطنات. وقد دان حاخام كبير سابق آخر الفصل بأنه «لعنة من السماء»[27]. وتولى حفنة من حاخامات غزة توجيه عمليات العنف ضد الجيش حين أتى لإخلاء المستوطنات في أغسطس 2005، وقام أحدهم حتى بالإشراف على جماعة من الشبان الذين كانوا يلقون الزجاجات الحارقة على وجوه الجنود.

ومع ذلك، ثمة أسباب تدعو إلى الاعتقاد بأنه إذا قامت الدولة بتفكيك العدو الصغير من مستوطنات الضفة الغربية اللازمة لتحديد الحدود الموسعة النهائية لإسرائيل، فإن المستوطنين سوف يسعون في خاتمة المطاف إلى حل وسط بدلاً من المواجهة. وقد دلت على ذلك صور الجنود والمستوطنين وهم يتعانقون والدموع في عيونهم فيما كان يجري إخلاء مستوطنات غزة. وبعد الانسحاب، سارع الحاخامات الذين حرضوا ضد الحكومة إلى اتخاذ موقف مسالم. ففي مقابلة مع صحيفة الجيروزالم بوست، طلب الحاخام إيلياهو من الصهيونيين المتدينين أن يظلوا على ولائهم للدولة، وحث جميع اليهود على «المحبة والوحدة»[28]. كما أشار زعيم المستوطنين إسرائيل هاريل على «الجمهور الديني الوطني بعدم الانفصال مطلقاً [عن الدولة][29] الصهيونيون المتدينون يدركون أين يكمن مصدر القوة النهائي في دولة إسرائيل العلمانية ومؤسساتها وترسانة أسلحتها.

ومع ذلك فإن صدمة الفصل سيكون لها آثار عميقة على مستقبل الصهيونية الدينية. لقد تحدث المحللون عن الاتجاه الذي سيسلكه أعضاء المعسكر الديني لاحقاً. وتتضمن الخيارات المتاحة لهم ما يلي:

obeikandi.com

اعتناق مناهضة الصهيونية التي يتبناها الأورثودوكس المتطرفون، مما يجعلهم يديرون ظهورهم للاستيطان كهدف؛ أو العودة إلى المواقف الأكثر توافقاً والتي لا علاقة لها بالاعتقاد بالمسيح المنتظر للمعسكر الديني قبل حرب الأيام الستة؛ والاقتراب أكثر من عنصرية كاخ والمواجهة. يرى موشيه هالبرتال، وهو فيلسوف من الجامعة العبرية، أن الغالبية العظمى من زملائه الصهيونيين المتدينين «لن يقطعوا الصلة بالاتجاه السائد في إسرائيل». فهو يعتقد أن كتلة حاسمة من الصهيونيين المتدينين سيضعون الوحدة اليهودية قبل أي اعتبار آخر[30]. وقد اقترح الحاخام دان بيئيري كيف يمكن للمعسكر محاولة تحقيق ذلك. فقد دعا الصهيونيين المتدينين إلى البحث عن طرق للتغلغل في نخب البلد السياسية والاقتصادية بنفس الطريقة التي تسللوا فيها إلى الجيش. «فكما أرسل جمهورنا أبناءه إلى الجيش وإلى فيلق الضباط وأحدث تغييراً كمياً في وضع الجيش، كذلك... علينا أن نِعدّ صفوة شبابنا لبلوغ مراكز القوة»[31]. فبدلاً من التحرك نحو المركز الوسط في إسرائيل، فقد يحاول المعسكر الديني جذب المركز المتوسط إلى المستوطنين.

لقد وجد المعلقون العلمانيون تلك السيناريوهات مدعاة للقلق. فقد حذر أفراهام تال من صحيفة هآرتس بأن «إسرائيل الديمقراطية اليهودية تواجه خطراً مزدوجاً: كدولة يهودية من الذين يحبذون أن تكون «دولة لجميع مواطنيها»؛ وكدولة ديمقراطية من جانب الذين يحبذون دولة للمؤمنين. إن من الصعب تحديد أي التهديدين أكثر خطورة»[32].

على أنه في معادلة ما هو يهودي وما هو ديمقراطي، لا يمكن أن يكون هنا شك بشأن أي الفريقين ـ الصهيوني المتدين أو العرب ـ هو الأكثر تعرضاً للأذى. إن التحدي الذي يواجهه شارون وأولئك الذين يأتون بعده سوف يتعلق بكيفية تحويل التوافق السياسي الذي يكمن وراء تقسيم الأرض إلى توافق إثني؛ وكيفية تعزيز الدولة اليهودية من عمل مادي إلى عمل إيديولوجي يشمل اليهود العلمانيين والمتدينين على السواء. وكما يقول الدكتور عادل مانا ولطفي مشهور، فإن العواقب الضارة لذلك التعزيز سيشعر بها شعوراً بالغ الشدة المواطنون العرب في إسرائيل. فهم لن يدعون إلى الانضمام إلى التوافق لأن التوافق سيرفضهم بالأصل. وكما قال الوزير السابق ناتان شارانسكي: «إن الحرب الأهلية [حول الفصل] والتي لم تحدث تعلمنا أننا جميعاً في نفس المعسكر»(33). كان يشير، بالطبع، إلى اليهود لا إلى الإسرائيليين.

«الأسرة» ضد المتطفلين العرب

«هذا النوع من الشعور بالأسرة هو الذي سيضمن إمكان قيام الدولة بتنفيذ العملية الجراحية اللازمة لتقسيم البلد دون حدوث حرب أهلية»، كما قال البروفسور الكسندر جاكوبسون من الجامعة العبرية، مضيفاً كفكرة لاحقة: «على أنه يجب أن نسأل أين سيترك هذا التضامن للأسرة اليهودية الإسرائيليين غير اليهود»(34).

حاخام واحد على الأقل كان عنده الجواب، حيث قال للمشاهدين عبر التلفاز بأنه إذا رفض الفلسطينيون، بمن ذلك عرب إسرائيل، مغادرة أرض إسرائيل فإنهم «سيدفعون الثمن».

يتساءل نشط السلام القديم أوري أفنيري ما إذا كانت شعبية الكاهانية لدى المستوطنين الشبان قد تومئ إلى الطريق الذي ستسلكه إسرائيل بعدئذ.

لقد دعا كاهانه علناً ما يقوله الكثيرون من المستوطنين، وربما الغالبية العظمى منهم فيما بينهم، من أن الله لم يعدنا لهذا البلد فحسب، لكنه أمرنا (في كتاب جوشوا) باستئصال السكان غير اليهود. ليس لهم مكان هنا. فإذا لم يفلح الإرهاب في جعلهم يغادرون («الترانسفير الطوعي») فلا بد من إزالتهم[35].

إذا كان لليهود العلمانيين والمتدينين أن يتحدوا، فسيكون ذلك حول المبدأ الذي مفاده أن الآخر، العدو، هم العرب.

وحسب فهم زادا والشرطة، فإن الدولة اليهودية في خاتمة المطاف تعرف العربي تعريفاً سبياً فقط: أي أنه غير يهودي. إنه ضيف غير مرحب به، إنه المتطفل، المخرب، الإرهابي. لذا فيجب أن يكون هو الذي يرحل، أو الذي يجب العمل على جعله يرحل. وقد أشار الكاتب الإسرائيلي سيفي راشليفسكي إلى أن المذبحة التي ارتكبها زادا حدثت فقط لأن القانون الديني اليهودي (هلاخا) كان ينظر إلى إيذاء «غير اليهود» نظرة رزانة نسبية. وقد تنبأ راشليفسكي بأن «تصعيد العنصرية» نحو العرب من شأنه أن يعطي الصهيونيين المتدينين «التعويض» اللازم للفوز بموافقتهم الضنينة على التقسيم. وأشار إلى أن حوادث القتل التي جرت في شفاعمرو هي "مجرد البداية على ما يبدو)»[36].

كان شارون، مثل باراك قبله، يدرك أهمية الأفكار والرموز الدينية في معركة تكوين توافق يهودي يضم المتدينين والعلمانيين، على السواء. ويقع في وسط هذا النضال، جبل الهيكل، وهو الجزء المرتفع من الأرض في مدينة القدس القديمة حيث تحاول إسرائيل بهدوء انتزاع السيادة الفلسطينية من الفلسطينيين. هذا هو المكان الذي وجد باراك، وهو يستعد للمفاوضات مع الفلسطينيين في كامب ديفيد، إيمانه العلماني وحول جبل الهيكل إلى «قدس الأقداس». إنه أيضاً حيث بدأ شارون حملته الانتخابية، وفاز بتكليفه الذي يكاد يكون مقدساً لإعادة تشكيل الأرض الموعودة. وهو المكان الذي سوف يوجد فيه الرمز الوطني والديني المطلق لتوحيد جميع اليهود في نضالهم من أجل دولتهم النقية، قلعتهم اليهودية.

obeikandi.com